فاعلية الخطاب النسوي في الأسلوب القرآني

م. د. يسرى خلف حسين
كلية التربية للعلوم الإنسانية – ابن رشد / قسم اللغة العربية

الملخص:

القرآن الكريم عبْرَ خطابه وعرضه – بتنوعاته المختلفة– يؤسس لوسائل تعبيرية تحقق جانب التناسق بين وحدات البناء وأسلوبه؛ لتشرق من نوافذه دلالات متنوعة تتجاوز المعيارية إلى قراءات متعددة، فتتسع الدلالة تبعاً للتحولات في أسلوبه، وتنوع مكونات البنية فيه، لتعطي للسياق مرجعية أولى لاستقراء الخطاب ومعرفة دور مؤديها وظيفياً عبْرَ تنوعها في بنية الصورة؛ لأنّ التنوع يغادر الصور الجاهزة والدلالة التقليدية التي تبقى تدور في رحى المعجم، أو تبقى رهينة الرؤية المفسرة لتتوافق مع الذائقة والروح دون أن تحلق في فضاء الصورة، وتتخطى حدود العالم المدرك؛ لتصطفي للصورة قراءة طافحة بالرؤى والتصورات، قراءة يشترك فيها الحرف والكلمة والسياق والمتلقي معاً، ما يجعل لغة الخطاب القرآني تتصاهر فيها العلاقات والأنساق التركيبية المعدة سلفاً، أو المعدة لفضاءٍ معرفيٍ أو دلاليٍ محددٍ، والتي تلغي التفكير والتأمل المفصح عن الجديد من المواقف التي من شأنها تنظيم العلاقات التواصلية؛ لأنها تقترب أكثر من النفس وانفعالاتها.

فالأسلوب بصوره وأبعاده من شأنه أنْ يوقظ كوامن النفس ويجسّد تطلّعاتها في الخارج، وهو بدوره يقرّب المعنى من الحسّ بما يملكه من فاعلية تثير قنوات الإدراك لدى المتلقي عندما يتحول الخطاب القرآني إلى مدرك محسوس أو مسموع أو متخيّل أو متذوّق تبعاً للانفتاح على ميادين الحواس وتداعياتها وتراسلها في التلقي حين نعدو صورها مائلة أمامه، فأصبح له أثر جعل متلقيها ينفتح إلى ميادين التأمل والتأويل، إذ تتعالق التراكيب التعبيرية وتتداخل، فلا تجعل للمشاهد قيود تحدد علائقها وروابطها.

إنَّ وصف تلك التنوعات الخطابية التي جسّدتها النصوص القرآنية في سياقاتها التركيبيّة، والتي وردت مشحونة بطاقات دلالية وإيحاءات متعددة الجوانب، مما جعلها تظهر ببنية تستدعي أنماطاً فنيّة وجمالية في التعبير النصّي– تحليلاً وتشكيلاً– بحيث يمكننا من الدخول إلى فضاء الحدث، ورسم أبعاد الشخصيات في الخارج والداخل، وتحليل أفكارها عبْرَ التفكيك والتشريح والتفسير، فتظهر فاعليّة الدلالات المتنوعة بتنوع زوايا النظر إلى الأسلوب بتنوعاته، وإلى البنية اللغوية بأنماطها وأقسامها، في وصف الشخصية النسوية الفاعلة بجميع مستوياتها، وما الخطاب النسوي في القرآن الكريم إلاّ اعلام بالجانب التشريفي وترغيب بالاقتداء بهن؛ لخصوصية تلك الشخصية المنتقاة؛ ولأن الشخصيات الفاعلة جميعها في المجتمع جعلت محط عناية الخالق سبحانه، وقد اتسمت صورتهن في الأسلوب القرآني بالدهشة والرهبة والجمال والعطاء والإعجاز.

أولاً: الخطاب دلالة مرجعية:

قصة نبي الله سليمان ﷺ مع ملكة سبأ ((بلقيس)) أشار إليها القرآن الكريم في سورة النمل في إحاطة طائر الهدهد بتلك المدينة وملكتها، قال تعالى: ((وجئتنك من سبأ بنبأ يقين))، وقد بين الهدهد إن على تلك المدينة ملكة تحكمهم، وعندها من كلِّ شيء، ولها عرش عظيم،

وأنهم كانوا يسجدون للشمس الآلهة إذ صدهم الشيطان عن عبادة الله تعالى، فكانت من قوم كافرين.

أرسل لها سليمان ﷺ بأنّ تأتي صاغرة مسلمة لله ربِّ العالمية . فخاطبت قومها بهذا الشأن، في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ*إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل/ ٢٩- ٣٠] فقد طلبت الملكة من قومها الفتوى والمشورة في ذلك الأمر، وهي مشورة ومحاورة حسنة ودليل على صحة الاستعانة بالآراء [(١)]،قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ((وشاورهم في الأمر)) [آل عمران /١٥٩]، كما مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى/ ٣٨]. وتلك المشورة قديمة، وبخاصة في الحروب لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل/ ٣٢] . وقد سلّم قومها الأمر إلى نظرها مع ما اظهروا لها من القوة والبأس والشدة، فالأمر مفوّضٌ إليها في القتال وتركه، إن أَمرْت بالصّلح صالحنا، وإن أمرت بالقتال قاتلنا.

شعرت بلقيس بخطورة الامر وصعوبته، وإن أبدى قومها لها البأس والعزم والقوة، فقالت لهم: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل/ ٣٤] اخبرتهم بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها وعاقبة الحرب في أذلال اعزتها وإهانة أشرافها، وقهر أبنائها واستعباد أحرارها[(٢)]. وتناهى الخبر منها الملوك فقال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ، فهو تصديق من الله سبحانه لتحذيرها مسير سليمان ﷺ، وأمته إليهم ودخوله بلادهم وتخريبها، عنوة، فذكرت لهم سوء العاقبة، وقد مالت إلى المصالحة، ورتبت الجواب للمعنى الذي أرادته.

والخطاب يحيلنا إلى مرجعية دخول الملوك القرى ليسد فجوات في المعنى القصدي الذي كان ملوؤه قد بقي معلقاً إلى حين قوله: ((أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون))، إذ تشكل به امتداداً منطقياً لمطلع الخطاب حيث كان دخول الملوك مقترناً بافساد البلاد، وجعل أعزة أهلها أذلة. وقد ترك هذا فضاء يكشف عنه السياق بعبارة: ((وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)) من أن ذلك الكلام متصل بعضه ببعض، وهو تصديق من الله سبحانه لقولها وتأكيد للمعنى الذي أرادته. أو أنَّه من قول الله ﷻ معرفاً للنبيّ محمد ﷺ وأمّته بذلك ومخبراً به .

وفي ضوء ذلك يتضح ظلال المعنى المبيت لهذا الخطاب ومغزاه من مرجعية الدلالة والوظيفة في تحقق الإيحاء إلى الفكرة من أن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى عنوة كان الإفساد، وكانت الذلة تستغرق الحدث الذي بدأ الخطاب به في امتداد الطغيان في الفضاء

الزماني والكشف عن معطيات المعنى المؤدي إلى عاقبة الحروب بإظهار رأيها مجيبة لهم عن التعريض بالقتال، في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فجملة ((يفعلون)) مستأنفة في حيز القول، والمعنى: يفعلون فعلاً مثل ذلك الفعل (٣).

فهي عادة مستمرة ثابتة لا تتغير؛ ولأنَّها كانت في بيت الملك، فسمعت نحو ذلك ورأت، والخطاب فوق هذا في مستهله يعطي الحديث عن مغبة الحرب، وآثارها وعواقبها المخيفة.

نظرت بلقيس في أن ترسل للنبي سليمان عليه السلام هدية نفيسه تصانعه بها عن ملكها، فناظرة ما يكون منه حتّى أعمل على حسب ذلك بقبول أو ردّ؛ وإنّما فعلت ذلك لأنَّها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم. فلما وصلت الهدية إلى سليمان عليه السلام ردّها وقال للوافد: ارجع إليهم بالهدية فقالت بلقيس حينئذ هو نبي وما لنا به طاقة. وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنه ملك أو نبيّ فأن قبل الهدية تبين أنه ملك وعندها ما يرضيه وأن ردها تبين إنه نبي، فشخصت إليه وخرجت تبتغي سليمان، فلما علم بمسيرها إليه من أرض اليمن، قال لجلسائه: ((يا أيها الملأ أيكم يأتيني يعرشها)) قبل أن يأتوني صاغرين مسلمين؛ وإنما أراد سليمان عليه السلام أن يتبين هذه المعجزة ودلالة نبوته عندها فتعلم بلقيس أنه نبي فتسلم.

فكان عرش بلقيس وإحضاره دليلاً على صدقه ونبوته؛ لأنه تركته في دارها وأوثقته ووكلت به ثقات قومها يحرسونه ويحفظونه. وعند وصول العرش جعل جن سليمان المسخرين له عرش بلقيس متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله (٤).

قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ *فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ *وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ *قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل/ ٤١– ٤٤]. وكان السؤال: أمثل هذا عرشك، ولم يقل: أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً، فقالت: ((كأنه هو، ولم تقل: هو هو، ولا ليس هو، وذلك من رجاحة عقلها، إذ لم تقطع في المحتمل، وقد أصابت في جوابها، وهي عاقلة مدركة علمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة، وقد صدها إبليس عن التقدم إلى الإسلام والانقياد لله تعالى ونشوؤها بين ظهراني الكفرة الجاحدين العابدين للشمس (٥).

وزيادة على ذلك أراد سليمان عليه السلام أن يوضع سريرها في الصرح المبني من الزجاج وجعل تحت الصرح الماء، فلما حضرت بلقيس إلى الصرح رأت ما فيه حسبته ماء كثيراً، فارادت

أن تخوض فيه، فشمرت ثيابها وكشفت عن ساقيها، قال سليمان ﷺ ((إنه صرح ممرد من قوارير، فقالت بلقيس: ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت لرب العزة والجبروت)) .

وتطالعنا في سورة (آل عمران) قصة مريم من إن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح، حين بشرتها باصطفاء الله إياها وتطهيره لها، وامرتها بعبادته ودوام شكره، واردف قصة مريم قصة عيسى ﷺ إذ بشرها سبحانه بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجاء بقصة زكريا بينها اعتراضاً تقريراً لقصة مريم وتنبيهاً إلى أنَّه وحده كاف في الدلالة على صدق من أنزل عليه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ *وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ *قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران/ ٤٥– ٤٧]. والكلمة من الله سبحانه أراد بها كلمة التكوين المعبر عنها، كن فيكون))[٦]، وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإنْ كان كلّ شيء قد خلق بكلمة التكوين، فهو ابن مريم مع كون الخطاب لها إشارة إلى أنَّه ينسب إليها، إذ ليس له أبٌ. وقد أعلمت مريم بنسبته إليها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلاّ إلى أمِّه، وبذلك فضلت واصطفيتْ على نساء العالمين، فهو المسيح عيسى بن مريم، وتلك ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى والمسيح لقب والابن صفة، والاسم للمسمّى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فهو الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة [٧].

وجاء السؤال التعجبي لمريم في كيفية تكوين هذا الولد: أمن قبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ فروي أن جبرئيل ﷺ حيث قال لها: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران/ ٤٧] وقال ربُّ العزَّة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم/ ٢١] وقوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾، أراد أن يخلق خلقا ويضع ما أراد من بشر أو غير بشر، فكان مثل هذا الخلق العجيب البديع، وهو خلق الولد بغير أب [٨].

ولاختلاف القصتين قصة مريم وزكريا في الغرابة عبّرَ في قصة زكريا بـ: (يفعل) وفي قصة مريم بـ(يخلق)، إذ العادة قد جرت بأن الفعل يستعمل كثيراً في كل ما يحدث على النواميس المعروفة والأسباب الكونية المألوفة، والخلق يقال فيما فيه إبداع وإنشاء، ولو بغير ما يعرف من الأسباب، فيقال: خلق الله السموات والأرض، ولا يقال: فعل الله السموات والأرض. وإيجاد نبي الله ((يحيى)) بين زوجين كإيجاد سائر الناس، فعبر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا من جهة أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما في العادة،

أما إيجاد عيسى ﷺ فهو على غير المعهود في التوالد، بل بمحض القدرة، فالتعبير عنه بالخلق أليق بالإنشاء في قوله كن فيكون ((من غير ريث ولا إبطاء، وهذا تمثيل لكمال قدرة الله سبحانه ونفوذ مشيئته، وتصوير سرعة حصول ما يريد بأمر التكوين.

والمغزى الدلالي لهذا الخطاب القرآني يتمثل في طرح مريم ابنة عمران سؤالاً صريحاً في كيفيةهذا الولد، ولم يمسها ويجامعها بشر [٩]. وتوكيد السؤال لجبريل في قوله: (رب أنى يكون لي ولد) وقولها: (ولم يمسسني بشر)، وفي زحمة هذا الاستفهام التعجبي المؤكد وابتغاء التخفيف من ذلك الأمر، يلجأ الأسلوب القرآني إلى خلق الإيقاع السريع ودفع الشعور بالخوف إلى قطع جملة الخطاب، والتحول إلى المخاطبة المباشرة في قوله: (قال كذلك الله يخلق ما يشاء) فتبدأ بنية الخطاب بالانفتاح التدريجي على أفق يرتسم عبره أمل جديد حين تتعطف سيرورة الخطاب بالتحول من الخضوع للخوف إلى حيث أصبح محكوماً برؤيا مستقبلية واعدة، يتم ذلك عن طريق قوله تعالى: ﴿إذا قضى أمراً﴾ والقضاء- هنا- الإرادة المسبوقة بالظرف الزماني الاستقبالي (إذا)، المتبوع بسرعة الإنشاء والتكوين الحاصل فيه المعجزة الإلهية ((فإنما يقول له كن فيكون))، إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

والاستفهام الذي جاءت به مريم ﷺ لم يكن استبعاداً واستنكاراً، بل هو استفهام خرج للتعظيم لقدرة الله سبحانه؛ لأن في طبع البشر التعجب مما يخرج عن المعتاد لتعلم إن الله يرزقها الولد وهي على حالتها لم يمسها بشر، أو أن يقر لها زوجاً ثم يرزقها الولد على مجرى العادة، فالله سبحانه إذا قدر أمراً قال له ((كُنْ فيكون)) مراد الله في كل شيء أراد حصوله من غير مهلة ولا معاناة ولا تكلّف سبب واستعملت لفظة الأمر فيما ليس بأمر – هنا- ليدل بذلك على أن فعله بمنزلة فعل المأمور في أنه لا كلفة فيه على الأمر [١٠].

وتأتي بشارة إبراهيم ﷺ وزوجته بإسحق في الخطاب القرآني على لسان سارة بنت هاران زوج إبراهيم ﷺ وابنة عمه لما بشرت بإسحق أنها تلده، وقد تعجبت مما قيل لها في هذه الولادة، إذ كانت قد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء، قالت: ((يا ويلتي))[١١]. وهي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار له. قال الله تعالى على لسانها: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ*قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود/ ٧٢- ٧٣]، فالشيء عجيب أن يكون الولد من هرمين، وهو استعجاب من حيث العادة من دون القدرة [١٢]. فهذا زوجي وبعلي القائم بأمري ترونه شيخا كبيراً ولا يولد لمثله، فكيف يولد لهرمين مثلي ومثل زوجي في العادة؛ لذلك قال لها ربها رب العزة عن طريق

ملائكته ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود/ ٦٩]، فضحكت سروراً بزوال الخيفة، أو كان ذلك بهلاك أهل الخبائث قوم لوط، وتقريب عذابهم، ثم خصت سارة بالبشارة بإسحق، لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال؛ ولأنه لم يكن لها ولد . وقد أراد الله سبحانه تخصيص إبراهيم وأهله بمزيد من النعم والكرامات، فقالت لها الملائكة: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد من النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل، فضلاً عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، وقد جاء نصب ((أهل البيت)) على المدح او النداء لقصد التخصيص [١٣]، كما نصب ((شيخاً)) على الحال، والعامل معنى الإشارة التي دلت عليه ((ذا)) أو معنى التنبيه الذي دل عليه ((هذا)).

وجاء في سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام كان عمره يومئذ مئة سنة وإن زوجه سارة كانت ابنة تسعين سنة، ومثلها لا يلد، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة في سن الخمسين، فيبطل استعدادها للحمل والولادة، على إنها كانت عقيماً وقولها للرسل حين بشروها بإسحق: كنت شابة وكان إبراهيم شاباً، فلم احمل فحين كبرت وكبر ((أألد))[١٤] فقال لها الرسل: تعجبين من ذلك يا سارة، فإن الله قد صنع بكم ما هو اعظم من ذلك، أن الله قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد، فرحمة الله متكاثرة عليكم، وبركاته متوالية متعاقبة، وهي النبوة والمعجزات القاهرة، إذ نجى الله سبحانه إبراهيم من نار قومه الظالمين، وآواه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، قالوا لها: لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء يصدر عن أمر الله سبحانه الذي لا يعجزه شيء، وهو الخالق للسنن، والواضع لنظام الأسباب، فكيف يليق به التعجب، وقد أكدوا ذلك بقولهم ((إنه حميد مجيد)).

فإذا كان من المعلوم إنه تعالى قادر على الكل وإنه حميد مجيد، فكيف يبقى هذا التعجب في نفس الأمر نفسه، ولاشك في أنها تعجبت بالنظر إلى أحوال العادة لا لأجل إنها استنكرت قدرة الله سبحانه وتعالى على ذلك. فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجب [١٥].

كان من وراء هذا الخطاب وتلك المحاورة ما يسجل رد فعل حاسم لحدث ((ولادة امرأة عجوز))، انتهت به مشيئة الله سبحانه، بأن الفكرة ((النواة)) التي يعالجها فعل السرد في الأسلوب القرآني ((أألد وأنا عجوز)) والإشارة إلى كبر زوجها ((وهذا بعلي شيخاً))، هذه الفكرة تبلغ غايتها في النص المعجز، وما بقي من النص والتعجب من عجبها، لا يتعدى حدود كونه تعليقا على ما سيجري، وإذا كان فعل السرد جارياً على وفق منحى: الداخل ــ الخارج ((أألد وانا

عجوز))، فإن الفعل نفسه يجري هنا باتجاه آخر، يبدأ من: الخارج ـ الداخل، وما يكون هذا إلا بمراعاة بشارة الله سبحانه النبي إبراهيم عليه السلام وتبع ذلك بشارة زوجه سارة بالولادة.

ثانياً: الخطاب دلالة رمزية:

إن من بديع الأسلوب القرآني ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة؛ ليكون من شأن هذه الهيئة أن توسع دائرة الخيال لاستقطاب المعاني البعيدة والخافية عن الذهن، وتقدم لنا الصورة الكاشفة عن المشاعر الكامنة في النفس، وتضع المتلقي أمام الحدث الذي يكشف عن هوية الشخصية عَبْرَ رصد السلوك، وتتبع دلالاته الرمزية والإيحائية في قصة موسى عليه السلام ((والمرأتين اللتين سقى موسى لهما، وما كان بعد هذا من تتابع الأحداث في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ *فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص/ ٢٣- ٢٦] .

فالمشهد بداية في الاستفهام الحاصل في قوله ((ما خطبكما)) وشأنكما ترعيان الغنم مع الرجال وما بالكما لا تسقيان، وكان استعمال السؤال بالخطب، إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه، فأخبرناه بخبرهما وأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وإنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الاقوياء، وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى المكان؛ وحينئذ تردان (١٦).

فكان السؤال عن سبب الذود وكان الجواب، ضعفهما من ناحية، وأن أباهما شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به من ناحية أخرى، وما لنا رجل يقوم بذلك فشمر موسى عليه السلام عن ساعديه فأغاثهما وكفاهما أمر السقي رغبة في الخير والعمل الصالح على ما به من نصب وعناء. وقد ترك الاسلوب القرآني المفعول، فهو غير مذكور في قوله (يسقون) و(تذودان) و(نسقي) ؛ لأن المقصود فيه السقي لا المسقي (١٧).

وجسد الأسلوب حركة المشي بوصفه كاشفاً عن الشعور النفسي لشخصية المرأة التي استجاب لها موسى عليه السلام؛ لتكون تلك (المشية) على استحياء، والحياء غالباً ما يرتبط مفهومه بالنساء، والتعبير يصور هذا المعنى في شخصيات القصص مغلفة بمعاني العفة والسمو الخلقي والاتزان النفسي، وهي صورة مرسومة لتخاطب العين، صورة آنية ماثلة بكل أبعادها، وكأننا نرى المرأة تسير متجهة نحو الهدف ((حيث تمركز موسى عليه السلام)) لتضع المتلقي أمام الحدث للكشف

عن هوية المرأة عَبْرَ رصد السلوك وتتبع دلالته الرمزية والإيحائية، والكشف عن الكيان النفسي لهذه الشخصية الحيية المتخفرة التي سترت وجهها بثوبها. والحياء: هو انقباض النفس عن القبائح وتركها [١٨]. ويدل رمزية المشهد على وصف الخواطر النفسية والنوايا الطيبة؛ ليتحول هذه الوصف إلى مدلول داخلي يلمح بما تضمره هذه المرأة من أدب رفيع، إذ انتقل الحياء من كونه مفهوماً وجدانياً إلى مفهوم مادي ((طريق)) تمشي فوقه بدل الارض، بالافادة من توظيف حرف الجر ((على)) للدلالة على ((الاستعلاء)) مبالغة في الوصف؛ لأنه يريد: ((أنها مستحية في مشيتها، أي غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة لزينة))[١٩].

فالحياء مركب فيها متمكن منها؛ ولذلك قال ((تمشي))؛ لقصدية الحالة الكاملة في الوصف، وإلا فالفعل ((جاء)) بطبيعته يدل على المشي. والملاحظ إن المشهد يعول على المصدر في البيان ، وقد جاء على بنية ((المزيد)) الذي هو أبلغ في دلالته من المصدر الأصلي؛ لأنه دال على الزيادة والتحول [٢٠].

وبما أنّ المصدر يصف حالة مرتبطة بالذات، كان الأنسب أن يأتي منكراً؛ ليكون أبلغ في تداعي المعاني، ولما كان الحياء قد نزل منها هذه المنزلة فالأنسب في الأسلوب القرآني أن يأتي بـ ((جاء)) بدل ((أتى)) أو ((أقبل))؛ لأن التعبير القرآني يفرق بين الاحداث وطبيعتها من حيث حتمية وقوعها، وما سيقع، وبين المعاني المرتبطة بالحدث: ((فإن بعضها أثقل من بعض، فاستعمل لما هو أثقل ((جاء))، ولما هو أخف ((أتى))))[٢١] .

وفي المشهد موطن حذف، والمحذوف جمل عدّة والمعنى المقدر فيه: ((فذهبتا إلى أبيهما، وقصتا عليه ما كان من امر موسى، فأمر احداهن أن تدعوه له))[٢٢] وتتكشف عظمة المعاناة التي كانت تعانيها تلك المرأة في مجيئها لرجل تكلمه وهي لا تعرفه. وجسد مجيء المرأة لموسى عليه السلام بقولها : أن أبي يدعوك ليجزيك ويكافئك اجر ما سقيت لنا معلله بما لأبيها من الرغبة إلى لقائه، وليس للطلب الشخصي ومجيء موسى كان نزولا لرغبة أبيها الذي تشوق لرؤيته ومكافأته وليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر.

ويقدم الأسلوب القرآني دقة تعبيرية في دلالة ((الجزاء والأجر))، فليس الأوّل كالثاني، فالجزاء هو لمكافأة على العمل حسناً كان أو سيئاً، والأجر هو ((جزاء العمل))[٢٣]. والقيمة مادية كانت أو معنوية أو هو الثمن والعوض؛ لأن الاجر لا يستحق إلا بعد العمل. فلما جاء موسى عليه السلام إلى أبيها وقص عليه القصص قال له: لا تخف يا موسى، لقد نجوت من فرعون وقومه الظالمين.

ووظف القرآن الكريم الالفاظ في مشاهده ليجعل منها مولدا للمعاني عَبْرَ اشتقاق الالفاظ السياقية من مجاورها في قوله ((وقص عليه القصص))، إذ يرسم جو الشعور بالطمأنينة والسكون النفسي لموسى، وهي دلالة رمزية صارت مغذية للسياق العام في الجناس وما يُشريه من معنى مرتبط بالشخصية التي تعد إشارة دلالية تجسد المعنى النفسي، وبث المعاناة بشيء من البوح عن مكنونات الذات الداخلية التي تجمعت نتيجة الأحداث التي توالت على ((موسى)) مسبقاً. وقد جرى المثل في قول المرأة التي استدعته: يا أبت استأجره لرعي الغنم، إن خير من استأجرت القوي الأمين، تعبير شائع يجري مجرى المثل على إنه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة فيه جعل ((خير))، اسماً، وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤٌ مجرب معروف. فقوته وأمانته أمران متحققان، وهو كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بذلك بالك، وتم مرادك يا أبتي، فخير الأجراء من يكون قوياً في العمل أميناً على العورة والمال، وهذا ما دفع موسى عليه السلام بأن يتزوج من إحدى المرأتين، ويصبح المشهد نسقاً لغوياً مثالياً، وصورة رمزية موحية بفخامة القصد والهدف.

ومن اختصار القرآن المعجز الذي يجمع فيه المعاني بأوجز لفظ قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا، هي لتردَّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها فراراً من ركوب الفاحشة. والمرأة طالبة يوسف عليه السلام لتقضي حاجتها منه، وهي التي راودته عليها فأدركته قبل أن يخرج، فتعلقت بقميصه، فجذبته إليها مانعة له من الخروج من الباب، فقدَّته من دبر فشقّت ثوبه، وقد وجدا العزيز عند الباب، فلما رأت زوجها العزيز طلبت وجهاً للحيلة بأن توهم سيدها بأنها فرت من يوسف عليه السلام تبرئة لساحتها عند زوجها وإغراءه به، وتخويف يوسف طمعاً به [٢٤]، فجاء القص القرآني في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ *فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف/ ٢٥- ٢٨] .

قصدت امرأة العزيز العموم فلم تصرّح بذكر يوسف وأنَّه أراد به سوءاً، بل جعلت العموم في كل من أراد السوء، فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأنَّ ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف، وقد بدأت بذكر السجن، وأخرَّت ذكر العذاب، لأنَّ المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف [٢٥].

أما الحبس الدائم فإنه لا يعبر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين، وهذا ما نراه في قول فرعون لموسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء/ ٢٩]. ولما شاهدت من يوسف ﷺ أنه استعصم من عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته، فاستحيت أن تقول إنَّ يوسف قصدني بالسوء، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح، بل اكتفت بذلك التعريض والرمز، فكان قولها: ((ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً))، فكان كلامها جارياً مجرى الرمز في دلالته . ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: ((هي راودتني عن نفسي))، إذ نطق يوسف ﷺ بالحق في مقابلة بهتها وكذبها، وكأَنَّ يوسف ﷺ لم يبن عن كشف القضية، فلما بغت به غضب فقال الحق إنها هي راودته عن نفسه[٢٦] .

فانتصر بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة والدعوة إلى نفسها، وقد ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها وأوجب للحجَّة وأوثق لبراءة يوسف ﷺ، وأنفى للتهمة عنه. وتطالعنا في قول امرأة العزيز الجملة الاسمية المؤكدة بأسلوب النفي والاستثناء: ((ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم))، وما ترمز إليه ضمناً من تنويه بخيانة يوسف ﷺ الزائفة، وما توحيه من دلالة المراوغة والتأويل وردة الفعل الصادرة منها في امتناع يوسف من مطاوعتها بارتكاب الفاحشة . وقد سمى الله سبحانه صنيع تلك المرأة وكيدها ليوسف بالعظمة، وكيد الشيطان بالضعف؛ لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال، وكيد النساء بالعيان والمواجهة والبيان.

وذكر الله ﷻ بشارة إبراهيم وإهلاك قوم لوط في تخويف الكفار أن ينزل بهم مثل ما أنزل بأولئك فقال هل أتاك يا (محمد) وهذا اللفظ يستعمل إذا أخبر الإنسان بخبر ماض، فيقال: هل أتاك خبر كذا، وأن علم أنه لم يأته وهو تفخيم للحديث وتنبيه على إنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحي، وقد بشّرت الملائكة إبراهيم ﷺ بالولد، فقال سبحانه على لسان سارة زوج إبراهيم ﷺ: ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ*قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات/ ٢٩- ٣٠] .

فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الأهل، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة، أقبلت في صيحة، وهي تولول متعجبة كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من احوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، ومن عادتهم صكّ الوجه أيضاً إذ ضربت بيدها على جبهتها تعجباً بما بشّروها به[٢٧].

وقالت أنا عجوز عاقر فكيف ألدُ، استبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما، أحدهما: كبر السن. والآخر: العقم؛ لأنها كانت لا تلد في صغر سنّها وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست. فضلاً عن أن بعلها شيخ كبير [٢٨]. فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاءً قريباً من الإجابة ظناً منها إن ذلك منهم، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولداً، فقالت الملائكة المبشرين: هذا منا ليس بدعاء، وإنما ذلك قول الله ﷻ : ((قالوا كذلك قال ربك))، ثم دفعوا استبعادها بالتوكيد بقولهم: (إنه هو الحكيم العليم) هو الحكيم في أمره، حكم بالولد بعد الكبر، (العليم) بخلقه العالم بذاته، المستحق الحمد بمجده، والله سبحانه قادر على ما تستبعدين، وهو الحكيم في أفعاله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، عليم بمصالح خلقه، فيكون قوله حقاً وفعله محكماً. وقد تحقق هذا الخطاب في الآية في نطاق مصاهرة بين التوظيف الرمزي للغة وبين حالة التعجب التي أصابت امرأة إبراهيم بعد سماعها البشارة، إذ أدت تلك الثنائية إلى تحقيق قيمتين فنيتين في آن واحد، فهي من جهة خلقت صورة مجازية ((عجوز+ عقيم تلد))، ومن جهة أخرى أغنت النص بدلالات تنحو نحو مقصدية قدرة الله سبحانه على كل شيء.

وحضرت رمزية الخطاب القرآني في ضربه المثل في حث المؤمنين على الصبر في الشدَّة بامرأة فرعون، ومريم ابنة عمران ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين القويم حين صبرت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون على آذاه، إذ كانت قد آمنت بموسى ﵇ واطلع فرعون على إيمانها فخرج على قومه فقال لهم: إنّها تعبد رباً غيري، فقال له قومه: اقتلها. فأوتد لها أوتاداً وشد يديها ورجليها[٢٩] . قال الله ﷻ على لسانها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم/ ١١].

فاستجاب الله سبحانه لدعائها، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة يُبنى، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها!، إنا نعذّبها وهي تضحك، وقد نجّاها الله اكرم نجاة فرفعها إلى الجنة خلاصاً من عذاب فرعون وظلمه وجبروته بأن تعتنق الوثنية التي كانوا يدينون بها، وتعتقد الوهيته هو، فأبت وجاهدت في الله حق جهاده حتى لاقت ربها وهي آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل في قلبها من نور الإيمان [٣٠].

أرادت آسيا القرب من رحمة الله بأن طلبت السُكنى في أعلى درجات المقربين، ثم بيّنت مكان القرب بقولها: ((في الجنة)) جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش، والرحمة، وأبعد من عذاب أعدائه [٣١]. فعبرت عن القرب بقولها: ((عندك))، وهي الدرجة العالية والمكانة الرفيعة؛

لأنه تعالى منزه عن المكان، وكان خطابها بالدعاء والاستعاذة يرمز إلى التوجه إلى الله سبحانه والالتجاء إليه عند المحن والنوازل، فهو المنقذ والمخلص والمنجي، وقد كررت الفعل ((نجني)) طلبا للخلاص من هذا العذاب والكفر، إذ كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله سبحانه وأبعده منه، فوالله ما ضرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت وآمنت به وصدقت رسوله ((موسى)) ﵇ ، وهي تحت عدو من أعداء الله كافر. وكان من قضاء الله سبحانه في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فاستجاب الله عز وجل لدعائها وخلاصها.

ثالثاً: الخطاب معادل موضوعي:

يجعل القرآن الكريم من القصة أداة وصفية تستظهر الشخصية، فيها مقاصد متعددة وجوانب دلالية مختلفة، ثم يبرزها وكأنها شاخصة أمام العين، فنقرأ عن السيدة مريم ابنة عمران أنها كلفت بحمل جنين من غير مباشرة زوجية؛ لتستر وراء هذا الحدث المعجز إشارات سلوكية نفسية اجتماعية تلاحظ في شخصيات الحدث، واقترانها بعوالم تخييلية، وفيها شيء من الإيهام.
قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً*فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً*قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً*قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً*قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيّاً*قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً* فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً*فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً*فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً*وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً*فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّا﴾ [مريم/ ١٦– ٢٦].

تلك هي السيدة مريم ابنة عمران اعتزلت وتنحت مكاناً شرقي بيت المقدس واتخذت ساتراً توارت به من أهلها وعن الناس للعبادة، فأرسل الله سبحانه جبرئيل ﵇ فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى ﵇ من غير أب، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسىً وغماً، وإنما مثل لها بهذا المثال لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته؛ ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته، ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال: (قالت أني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً)، وقالت إني استجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرم الله عليك أن كنت ذا تقوى له، تتقي محارمه

وتجتنب معاصيه [٣٢]، وقولها بالاستعاذة لا تؤثر إلا في التقي؛ لأن الله تعالى يخشى في حال دون حال.

فلما علم جبريل عليه السلام خوفها قال: لست يا مريم ممن تظنين، ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر، ولكني رسول ربك بعثني إليك لأهب لكِ غلاماً طاهراً، مبرأ من العيوب، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل إنها جرت على يده بأن نفخ في جيبها بأمر الله.

ولما عجبت مريم ما سمعت قال: من أي وجه يكون لي غلام ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور؟ قال جبريل عليه السلام مجيبا لها عما سألت: إن الله قد قال: أنه سيوجد منك غلام وأن لم تكوني ذات زوج، ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير، ولا يمتنع عليه فعل ما يريد. ولنجعله آية للناس وبرهاناً على قدرتنا، بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده، وهو أمر قد قضاه الله تعالى في سابق علمه ومضى به حكمه.

فاعتزلت مريم بعيداً من أهلها واستسلمت لقضاء الله سبحانه، فنفخ جبريل في جيب درعها واتخذت المكان البعيد حياء من قومها؛ ولأنها استشعرت منهم أتهامها بالريبة، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها. ويسير الحدث القرآني بأن اضطرها طلق الولادة أن تستند إلى جذع النخلة للتثبت به لسهولة الولادة وتمنت أن لو كانت ميتة قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت حياء من الناس وخوفاً من لائمتهم، أو إنها كانت شيئاً لا يعتد به ولا يخطر ببال احد من الناس[٣٣]. فناداها عيسى عليه السلام من تحتها، وقد انطقه الله سبحانه حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة الوحشة عنها حتى تشاهد علو شأن المولود الذي بشرها به جبريل عليه السلام ألا تحزني فقد جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن، وآية أخرى لها إذ روي إن الله أوحى إن هزت النخلة اليابسة التي لا رأس لها ولا ثمر، وكان الوقت في الشتاء، فأنزل الله سبحانه لها رزقاً، فجعل النخلة مثمرة يتساقط الرطب منها، فكلي منه ومن عصيره وطيبي نفساً وابعدي عنك هذه الأحزان، فأن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تخرصات المبطلين، فإن رأيت أحداً يسألك عن أمرك وأمر ولدك، وكيف ولدته فأشيري إليهم أني أوجبت على نفسي لله صمتاً ألا اكلم اليوم أحداً؛ ولكن يتكلم عني ذلك المولود عيسى [٣٤].

الخطاب القرآني يبدأ باستجابة السيدة مريم لأمر ربها في الحمل، ويترتب عليها اتخاذ الموقف الشخصي الذي يناسب دلالة الحدث (فحملته فانتبذب به مكانا قصيا) يُعَدُّ إشارة إلى مكان الولادة، ما يعني أن الخطاب القرآني يتعامل مع الزمن النفسي للشخصية القائم على اختزال الزمن الابلاغي. ويظهر عَبْرَ طبيعة هذا المكان المهجور أنه مكان مناسب لطبيعة النشاط التعبيري الذي انطوى عليه تكليفا وعطاء لا يألفه الآخرون؛ لأن الانسلاخ من عالمهم والتوجه

إلى عالم الذات يتسبب بإيجاد مفاهيم قد لا يألفها الواقع الطبيعي، ما يعني أن فضاء الحدث يقدم تفسيراً موضوعياً لطبائع الشخصيات؛ لأن الفضاء ينعكس على طبائع الشخوص الذين يحتويهم فيبرز لهم سمات مرتبطة بذلك الفضاء، فهناك علاقة تفاعلية بين شخصية السيدة مريم وبين الفضاء الذي أطر الحدث؛ فقوله: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) يمثل الإشارة إلى المكان الجزئي فيجسّد حالة اليأس من العطاء- بالنسبة للمتلقي- قياساً بالنخلة المثمرة، فقد ذكر أنه كان ((جذعاً منها مقطوعاً))[٣٥]. وذلك يُعْلِم أن السيدة كانت تعاني شعوراً حقيقياً بآلام الولادة المفاجئة.

والصيغة في فعل المجيء توحي بأنها حركة غير إرادية؛ لأن الألم أرغمها على ذلك المجيء، فقال ((فاجأها)) والأصل ((جاء بها)) ولما حذفت ((الباء)) عدي بالهمزة إلى مفعول ثان استعمل بمعنى ((الإلجاء)) ثم أطلق على إلجاء شيء إلى شيء آخر [٣٦]. والمعنى: اضطرها وجاء بها والفاء للتعقيب الحدثي أي: فجاء بها المخاض بعد تمام مدة الحمل . والمخاض تمخض الولد في بطن أمه وتحركه للخروج، وهذا الشعور جعل السيدة تستند إلى الجذع الملقى جانبا في عملية الولادة وعندئذ صرحت بالمعاناة كاشفة جزعها: (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا).

إن تلك الأمنية تشكل تمهيداً لاحداث قادمة تتصل بوعي الشخصية المتمنية مع أن هذه الأمنية كانت حديثاً داخلياً مع النفس، السر فيه هو الكشف عما في النفس من شعور عند مواجهة الناس بهذا الوليد، بحيث جعلها هذا الشعور لو كانت ((نسياً منسياً)) فشبهت حالها بشيء تركه أهله، ولم يلتفتوا إليه. بيد أن الصورة تكشف وبشكل غير ظاهر عن تلك العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع ما يعني أن الفرد يتحرك وفق ذائقة المجتمع، وأن المجتمع يمارس سلطة رقابية فاعلة في سلوك أفراده لارتباط الطرفين بمنظومة الفضاء الزماني والمكاني، وهذا يعني أن المفهوم منه المرجعية الواقعية ما جعل السيدة تتمنى الموت؛ لالتزامها بالموقف الأخلاقي والديني تجاه الواقع، فتحرّزت بالموت حياء وخوفا من ملامة الناس.

ويجسد قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ دلالة البشرى في محور المفاجأة، إذ هيأ الله سبحانه لها في تلك العزلة وفي شدة اضطرابها النفسي ما يتسبب عنه القوة والحياة، فتحتك سريا، وهو ((النهر الصغير؛ لأن الماء يسرى فيه))[٣٧] . وفوقك رطبا لتأكلي وتشربي، وقوله: ((وهزي إليك بجذع النخلة)) يستكمل النص محاورة وقد زال عن السيدة ما كانت تعانيه، إذ دل الجذع على بعد حسي في كونه عنصر قوة يستند إليه، وعلى بعد معنوي

نفسي، فهو عنصر الحياة ومصدر أنس ورزق، ولذلك أمرها سبحانه لتهز ذلك الجذع ((لترى آية أخرى في أحياء موات الجذع))(٣٨).

والحقيقة أن الجذع لا يهتز بحال من الأحوال وإنما المراد هو اهتزاز السعف؛ لأن جذع النخلة من الصعب تحريكه بخاصة والمرأة في حالة مخاض حقيقي، لكن ذلك يُومئ إلى القدرة الربانية الساندة لتحقيق دلالة العلاقة السببية في إيجاد الأشياء بعلاقة الأخذ بعالم الأسباب وتنامي أحداث النص عَبْرَ ربط اللاحق بالسابق والأسباب بالنتائج . فاستعدت السيدة لمواجهة الناس بالوليد بعد أن امتلكت عناصر القوة المادية والمعنوية الدالة على سلامة موقفها الإعجازي.

إن معاني القدرة والإبداع الإلهي تتوارى خلف هذه الأحداث، وما إسنادها للفرد إلا تشريفاً وإكراما له في جعل الإعجاز يظهر بسببه، فخلق غلام بلا أب، وإنماء جذع مقطوع ثم إسقاط الرطب بهزة امرأة في مخاض، ثم نهر يجري ماء في أرض يبس؛ صورة تجاوزت حدود الطبيعة من دون إنكارها، وإن بيئة الحدث قد اتسعت فتمثلت بشخصية منتقاة ومكان منتقى وزمان منتقى؛ ليشكل عالماً محتشداً بالعطاء الذي لا تحققه قوة مخلوق ما يعني أن تلك الصورة قائمة على التوازن الفني في نمو الأحداث، صورة اتسمت بالدهشة والرهبة والجمال والاعجاز.

وتأتي آيات الخطاب القرآني شواهد دلالية على براءة يوسف ﷺ من التهمة التي نسبتها إليه زوجة عزيز مصر، وتحقيق زوجها في الحادث، وحكم احد أقاربها بما رأى، وقد استبان منه براءته. وذكر الخطاب أنَّ هذا الأمر قد استفاض في بيوت نساء حاشية العزيز، فأحببن أن يمكرن بها، لتريهن هذا الشاب الذي فتنها جماله، وأذلها عفافه وكماله، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ودعته إلى نفسها فردها وأباها خشية الله وحفظاً لأمانة السيد المحسن إليه أن يخونه (٣٩). قال ﷻ : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ*فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ*قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ*قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف/ ٣٠- ٣٣].

لم يشر القرآن الكريم إلى عددهن ولا إلى صفاتهن؛ لأن العبرة ليست في حاجة إلى ذلك، والذي يقتضيه العرف إنهن جماعة قليلة من بيوت كبار الدولة، يعهد منهن أن يأتمرن ويتفقن على الاشتراك في مثل هذا المكر والإنكار على امرأة العزيز، وأن ينقلن الحديث من بيت إلى بيت

ويكون الشغل الشاغل للنساء في مجالسهن الخاصة، وذلك أن امرأة العزيز تراود فتاها ورقيقها عن نفسه [٤٠] وهذا يقال للإنكار والتعجب من حصوله؛ لأنها امرأة العزيز الأكبر في الدولة، ولها المنزلة السامية بين نساء العظماء، وقد بلغ بها الأمر أن جادت بعفتها، فكانت هي المراودة والطالبة لا المراودة المطلوبة.

وإنها وإن شاع ذكرها في المدينة لم ينثن عزمها عما تريد، ولا تزال مجدة في نيل مرغوبها، كما يفيد ذلك قولهن ((تراود)) ، وهو فعل يدل على الاستمرار في الطلب، ثم أكد هذا الإنكار بقولهن ((قد شغفها حبا)) . فملك عليها أمرها فلا تبالي بما يكون من عاقبة تهتكها، ولا بما يصير إليه حالها، ثم زدن ذلك تأكيداً: (إنا لنراها في ضلال مبين)، ولم يكن قولهن هذا إنكاراً للمنكر ولا كرها للرذيلة، بل قلنه مكرا وحيلة، ليصل الحديث إليها، فيحملها ذلك إلى دعوتهن والرؤية بأبصارهن ما يكون فيه معذرة لها فيما فعلت. وذلك منهن مكرٌ ولا رأي؛ وقد وصلن إلى ما أردن كما قال تعالى: (فلما سمعت بمكرهن)، ومقالتهن التي يردن بها أغضابها حتى تريهن يوسف ابداء لمعذرتها فينلن ما يبغين من رؤيته، وقد كان من المتوقع أن تسمع ذلك. فمكرت بهن كما مكرن بها، ودعتهن إلى الطعام في دارها وأمرت يوسف بالخروج عليهنَّ، وفي هذا إيماء إلى أنّه كان في حجرة في داخل حجرة المائدة التي كن فيها محجوباً عنهن، وقد تعمدت إتماماً للحيلة والمكر بهنَّ أن يفاجئهن وهنَّ مشغولات بالطعام، علماً منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة، وقد تم لها ما أرادت [٤١].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فدهشن لجمال يوسف وذهلن فجرحن أيديهن لفرط دهشتهن واستعمل القطع بمعنى الجرح، وقلن: (حاش لله) على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى أن يكون هذا الشخص الذي لم يعهد مثاله في جماله ولا في عفته من النوع الإنساني، إن هو إلا ملكٌ تمثل في تلك الصورة البديعة، حينئذ قالت امرأة العزيز لهن: إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن وما أكبرتن في أنفسكن وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن فيما قلتن، بل هو ملك تجلى في صورة إنسان، فماذا أنتن قائلات في أمري، وهو المالك لسمعي وبصري . لقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه [٤٢]، واستمسك بعروة العصمة، وجاءت بصيغة المبالغة ((استعصم)) وهو بناء يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها.

وقلن ليوسف: أطع مولاتك فقالت امرأة العزيز: (ولئن لم يفعل ما أمره) بموجب أمري ومقتضاه ((ليسجنن وليكونا من الصاغرين)) بالحبس مع السراق والسفاك. فلما سمع يوسف

عليه السلام تهديدها قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِليهِ﴾، إذ اسند الدعوة إليهن، لأنهن قلن له ما عليك لو أجبت مولاتك.

وقد افتتنت كل واحدة به، فدعته إلى نفسها سراً، فالتجأ إلى ربه، قال السجن أحبُّ إلي من ركوب المعصية، فطلب الصرف بالدعاء، وإن كان التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام فعصمه الله سبحانه من الجهل والسفه بإتباع أهوائهن (٤٣).

لابد من القول أنه لم يتضح موقف امرأة العزيز إلا عَبْرَ هذا الخطاب: (قالت اخرج عليهن)، وقوته الفنية والموقف الذي تمركز وصار بعضاً من هوية شخصيتها إذ أكثر ما انشغلت به رجوع هيبتها في المدينة بعد أن لامتها النساء واللافت للقراءة في الخطاب النسوي هو المستوى الآخر في سعادة امرأة العزيز في تقطيع المدعوات منهن أيديهن؛ لأن ردة فعلهن حققت فعلا تراجعيا عن لومهن لها، وعند رؤيتهن يوسف عليه السلام أكبرنه وأعظمنه وأصابتهن الدهشة وقلن ما هذا إلا ملك كريم . وهي نقطة تحول في دراما الموقف يتكشف ذلك المقتربات التي تتمحور حوله وتدفع باتجاه قرينة تقطيع الايدي لتتَّحِد مع الحدث ومستواه الدلالي بما تحمله من إشارات ودلائل تجعل المديات الدلالية الأخرى مكملة له.

إن استسلام النساء أمام حسن يوسف عليه السلام يتمخّض عنه انتهاء الموقف إلى النتيجة المرجاة، إذ يترتب على هذا أن تكف النسوة عن ممارسة فعل اللوم، وأن الشغف به انتقل إليهنَّ، فماذا يمكن أن يكون وراء هذا الفعل.

إن الخطاب القرآني حافظ على منحاه الإخباري وتميز- هنا- بطريقة الأداء التي تجد تبريرها في ذاتها، وفي خلق إدراك خاص وسمة خاصة متحققة عن طريق اللجوء إلى تصدير الخطاب السردي في قولها بالعطف بحرف العطف ((الفاء)) الذي يفيد التعقيب والمواصلة والسبب، واسم الإشارة مع الفاء ((فذلكن)) ولم تقل امرأة العزيز (فهذا) ويوسف قريب حاضر . فكان سياق الخطاب أن يتطلب هذا البعد الإشاري رفعاً لمنزلته عليه السلام في الحسن وشدة الحاجة البعيدة المنال من النسوة إليه.

وهذا مظهر إجرائي محكوم بالقصد، وهو ينحو باتجاهين أثنين: أحدهما إعطاء الخطاب طابعاً فنياً للخروج به من نطاق الصورة الاستعمالية المألوفة إلى حيث الدلالة الاعجازية والمغزى الاستثنائي الذي يخفف من شدة التقريرية المترتبة على تأديتها لمعنى صريح مباشر والاتجاه الآخر: إرادة تركيز الانتباه إلى ذلك الخطاب بأحداث التبادل الدلالي في اسم الإشارة المقترن بالمعنى. فالكلمة بصورتها الصوتية بوصفها ((دالاً)) تتفكك لدى القارئ إلى ((حروف)) وهي

بدورها لها فعل شبقي مع فعل المراودة ورسم صورة الصراع بينهن من جهة، ويوسف ﷺ والنسوة مجتمعات من جهة أخرى، إذ يتم التحول الخطابي في استعمال الضمائر الدالة من الأنا إلى الـ(هو)، وهو تحوّل يتأتّى مغزاه من تأديته في الخطاب السردي إلى اختزال مسافة التعارض بين يوسف ﷺ وامرأة العزيز، وهذه الحركة الانفعالية في استعمال الضمير ((أنا هو)) لا تتوازن وبداية القصة المروية لصاحبة الحدث امرأة العزيز، فهي تتقاطع محدثة خيبة الأمل والانكسار النفسي المصاحب للشكوى المتولدة من عصمة النبي يوسف ﷺ وامتناعه من فعل القبيح.

فكان تشكيل الحدث المترتب على تلك العصمة: امرأة العزيز ويوسف ﷺ والسجن الذي يرسخ فعل المراودة ، إذا تمكنت امرأة العزيز من يوسف شفاء لغليلها وانكسارها، وردة فعل لما صنعت بلا هدف وبلا جدوى، وهذه الردة تتضامن للإيحاء بكفاف فعلها وانحساره، مما يخلق وضعاً باعثاً على الأسف تعمق الشعور بالخيبة من الحاضر الآني والمستقبل الآتي.

رابعاً: الخطاب وسيط أسلوبي:

الدين الحق عند الله سبحانه وتعالى هو الإسلام والتوحيد، وإن اختلاف أهل الكتاب فيه إنَّما هو للبغي والحسد، وإنَّ الفوز والفلاح منوط بإتباع الرسول ﷺ وطاعته، إذ بين للناس طريق محبة الله والايمان به والعمل بما يرضيه، وساق القرآن الكريم قصة امرأة عمران، ((حنة)) وقد نذرت ما في بطنها محرراً مخصصاً للعبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر. وكان الله سميعاً لقولها عالما بنيتها حين دعت ربها وهي حامل بنذر ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، فتقبل منها الدعاء، فلما وضعت بنتاً تحسرت وتفجعت على ما رأت من خيبة رجائها وانقطاع املها؛ لأن الأنثى – في شريعتهم- لا تصلح لذلك، والله سبحانه اعلم بمكانة الانثى- مريم- وأنها خير من كثير من الذكور، وفي هذا تعظيم لهذه المولودة وتفخيم لشأنها، وهو دفع لما يتوهم من طلبها من أنها وضعت أنثى [٤٤].

استجارت ام مريم بالله بحفظه لها ورعايتها من الشيطان المرجوم ، فتقبل الله تعالى مريم من أمها ورضي أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيت المقدس على صغرها، وانوثتها قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ*فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران/ ٣٥- ٣٧].

كان التحرير عندهم وفي شريعتهم لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة بيت المقدس، وقد تربت هذه المولودة في بيت زكريا عليه السلام فكانت في خير تربية ونماء وصلاح وعفة وسداد رأي، ووفرة رزق (٤٥). إذ كان زكريا كلما دخل محرابها وجد ألواناً من الطعام عندها وقد جرى العرف في كل زمان بإضافة الرزق إلى الله سبحانه في قولها: هو من عند الله سبحانه . فهو سبحانه متقبلها ولا حاجة لعذر أمها وتفضيلها الذكر على الأنثى.

أجار الله تعالى مريم وذريتها من الشيطان الملعون، وانبتها نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، إذ قيض لها زكريا عليه السلام وكفلها إياه ليربيها على أحسن وجه، فنشأت عبادة ربها ولزمت محرابها فاكرمها الله بما من عليها من فضله وإحسانه.

إنها مريم – خادمة الرب وعابدة الله في لغتهم– وقد استجاب الله سبحانه لسؤال أمها ربها أن يحفظها وذريتها وأن تكون في طاعة الله وعبادته، ولم يقبل الله تعالى قبلها أنثى في هذا العمل، وقبل الله مريم ونبَّه على تعظيم شأن هذه الموهوبة وأبنها عيسى عليه السلام إذ تكلمت وهي صغيره كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثدي قط، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة، إذ نبتت في غذاء الله سبحانه وبرعاية زكريا عليه السلام، وضمها إليه بإيجاب الله له، وقضائه له بها على خصومه عند تشاحنهم فيها، واختصامهم في أولاهم بها (٤٦).

واللافت للنظر أنه على الرغم من ذاتية فعل خطاب امرأة عمران ((حنَّة)) إلاَّ أنَّ هذا التأثير غير متولد بمعزل من عناصر وسيطة أخرى تعمق وقعه في النفس بمضاعفتها كفاءته الدلالية وتفجيرها طاقة كامنة فيه، فهذا الخطاب يحمل مغزى يسبغ عليه سمة استثنائية تجعله حرياً بالوقوف عنده وتعقب سلسلة الأفعال التي تنجم عنه: ((قالت– ونذرت– وتقبل– وضعتها– سميتها– وأعيذها)) والتي لا تعدم الصلة بمجموعة فكر يوحي بها، على الرغم من تعددها وتنوعها تبقى محكومة بطبيعة النسق اللغوي الذي ينتظم في نطاقه، والصور الذهنية التي تتولد عنه؛ ولأن ميزة الخطاب متمركزة في قوله: ((قالت امرأة عمران رب أني نذرت لك ما في بطني محرراً))، التي تمارس فعلها على مستويين؛ أحدهما ظاهر يمثل في الوظيفة التي تؤديها الكلمة على صعيد السياق اللغوي المتصدر بـ ((إذ)) وهو ظرف لما مضى من الزمن متعلق بفعل مقدر معناه: اذكر إذ قالت امرأة عمران، وتكون الجملة مسوقة لتقرير اصطفاه ال عمران، كما اصطفى الله آل إبراهيم بخلته، إذ بذل نفسه للنيران، وولده للقربان وماله للضيفان، وجعله أسوة يقتدى به وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وخصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ ، فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق صلى الله عليه وآله الأولين والآخرين، فكان سيد مرسلين المصطفى من ولد إبراهيم عليه السلام،

اصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، فهذه البيوت التي ذكرها الله سبحانه هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال تعالى: (ذرية بعضها من بعض)، ولما ذكر الله سبحانه هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى عليه السلام وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها. وقول امرأة عمران لما حملت بـ ((مريم)) أني جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ((بيت المقدس))(٤٧)، فيبدأ الفعل على المستوى الثاني الذي هو مستوى باطن يمثل في سلسلة من الترابطات التي تبدأ بالانثيال.

وجاءت فائدة الخبر في قولها: أني وضعتها أنثى للتحسر، وليس مرادها الاخبار بمفهومه؛ لأن الله عالم بما وضعت، بل ارادة إظهار التحسر لما فاتها من تحقيق وعدها، والوفاء بما التزمت به. وكان القصد من قوله: ((والله اعلم بما وضعت)) افادتها أنه لازم الفائدة دون التصريح بما سيكون من شأن المولود الموهوب لخدمة ((بيت المقدس)) وقوله: ((وليس الذكر كالأنثى)) نفي الاعتقاد السائد بين الناس بوجود تفاوت بين الأولاد، وإن هذا التفاوت يبدو للوهلة الأولى إنما هو أمر ظاهر لا يثبت عند الابتلاء، وجاء توكيد الكلام بالمؤكد ((إن))، إذ تكررت مع الفعل الماضي: إني نذرت– وأني وضعتها– وأني سميتها، ومع الفعل المضارع المتعلق برب العزة المتضمن معنى الاستمرار والديمومة في قوله: ((أني أعيذها بك)) وقوله: ((أن الله يرزق من يشاء))، ومع الجملة الاسمية المؤكدة لبيان التقرير وثبوته: ((إنك انت السميع العليم))، وحملت التسمية ((مريم)) معنى التقرب إلى الله سبحانه بخدمة بيت الله، وادامة عبادتها وخلاصها لرب العزة، وهذا يذكرنا برؤية إبراهيم عليه السلام أنه رأى ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك امر من الله سبحانه، وأن لم يكن عن وحي، وكما ألهم الله أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي، وهذا ما دعت أم مريم ربها أن يهب لها ولداً، ويكون محرراً للخدمة، فحملت بمريم، وقد تقبل الله منها الدعاء.

وإنما فعلت ذلك بالهام من الله سبحانه ولولاه ما فعلت. والغرض من بيان هذه القصص تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وآله ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله، وجعلوه خاصاً بشعب إسرائيل، ورد شبهة المشركين الذين انكروها لأنه بشر، وذلك لأن الله سبحانه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران، اصطفى هؤلاء بمحض مشيئته تفضلاً منه واحساناً، وإذا كان هذا معروفاً عند العرب وعند أهل الكتاب، فما الذي يمنع من أن يصطفى محمداً صلى الله عليه وآله على العالمين كما اصطفى أولئك، فالله يصطفى من خلقه من يشاء، وقد اصطفاه وجعله هادياً للناس مخرجاً لهم مَنْ ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق واليقين.

وصدق وعد الله في قصة موسى عليه السلام حين رد الطفل الرضيع إلى أمه وجعله نبياً مُرسلاً إلى بني إسرائيل، وعد الله تعالى أمه بذلك كي تقرَّ عينها وتفرح بما سيؤول إليه مصير ابنها من ظلم فرعون وجبروته بقتل جميع الاطفال في السنة التي ولد فيها موسى عليه السلام. والخطاب القرآني يخبرنا بصدق وعد الله ومقدمات نجاة موسى، إذ الهم الله أم موسى بأن اقذفيه في نهر النيل في تابوت محكم ولا تخافي عليه من هلاكه، ولا تحزني لفراقه [٤٨]. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ *فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ *وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ *وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص/٧- ١٣].

إذ اشتمل الخطاب القرآني على أمرين: ارضعيه والقيه.

ونهيين: لا تخافي ولا تحزني وخبرين: إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين. وبشارتين في ضمن الخبرين وهما: الرد والجعل. كما وقعت على امرأة فرعون رحمة موسى، فاحبّته وخاصمت عنه من أراد قتله، فهو عندها مما تقر به العيون وتسر، وتفرح لرؤيته القلوب [٤٩]. وذكرت امرأة فرعون العلة التي قالت لقومها ((لا تقتلوه)) لعلنا نصيب منه خيراً، أو تتخذه ولداً لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التي تجعله أهلاً لتبني الملوك له.

وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها وهم لا يشعرون بأن هلاكهم على يديه[٥٠]، ثم انتقل الخطاب القرآني بالأخبار عن حال من فارقه بقوله: ((وأصبح فؤاد أم موسى فارغا))، فلا شغل لها إلا ذكر موسى والخوف عليه من فرعون وجنوده وأن ألهمها الله سبحانه الثبات وقوة القلب بأنه لا يقتل ولا يصاب بسوء، وأن تصبر وتكون من المصدقين بوعد الله في ردها إليه.

قالت أم موسى لأخته مريم اتبعي أثره فاتبعته فبصرت به عن بعد لئلا يشعرون بأنها أخته وأنها ترقبه عن بعد. وقد اعترضت الجملة المؤكدة بـ (إن) في قوله: ((إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) بين المعطوف والمعطوف عليه لتؤكد معنى خطئهم، وما احسن نظم هذا الكلام عند العالم بمحاسن الأسلوب وأنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأته آسيه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثديا، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك،

فخرجوا به لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته اخته ((مريم)) عرفته، ولم تظهر ذلك، ولم يشعروا بها، فقالت لهم: ((هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون))، فقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته (٥١).

وذهبوا بأخته إلى منزلها فدخلوا بموسى على أمه فاعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك، وذهب البشير إلى آسية زوج فرعون فاستدعت ام موسى واحسنت إليها واعطتها عطاء جزيلا، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقية وقد رجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق دار، ولتعلم إن وعد الله حق، إذ وعدها سبحانه بأنه راده إليها بهذا الضرب من اللطف.

إن الصورة التي ترتسم في الذهن متأتية من رفد الخطاب القرآني بالأفعال المضارعة التي تدل على المستقبل: لا تقتلوه- ينفعنا- نتخذه، أريد بها احتضان النبي موسى ﷺ وسلامته من فرعون وبطشه. وجملة: وهم لا يشعرون قرين رمزي في نسيج الخطاب الدال على حال آل فرعون وغفلتهم، لا يعلمون عن أمر موسى شيئاً من الوجاهة في الدنيا والآخرة، وهلاكهم على يديه بخلاف ما كانوا يرجون منه.

واعتمدت كلمات امرأة فرعون في الأساس على ذاتية الإحالة التي تتجه نحو الداخل، وكلمات رب العزة ((وهم لا يشعرون)) تتجه نحو إشكالية إبهام الصورة عند آل فرعون، إذ يكون خطاب المرأة بالنفع والاتخاذ، يحتويه كلام رب العزة احتواء كاملاً، وتكون الواو الحالية الرابطة التي توجه نشاط الدوال نحو الاستقرار الخالي من الانحراف والتغيير قد فتحت العرض المشهدي للنص بحياد قصدي ومعلن لهذه القصة، وتحول الخطاب من اللغة الموحية التي تخاطب الشعور إلى اللغة المؤدية معنى مرجعياً غايته الادراك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وهذه الغاية تحيلنا إلى منطق التفكير العقلي، وتصبح للغة الخطاب وظيفة تصريحية يتوارى عندها الايحاء والتلميح، ويكون التعبير المباشر سمة طاغية في المشهد بأفعاله: قالت- قصية- بصرت، التي تعكس وضعاً مرتبطاً بالتطور الدرامي للحدث.

والبداية المنطقية لتنامي الأحداث في قول أخت موسى لقوم فرعون: ((هل أدلكم))؛ لأن التفاصيل في القصة محكومة بذلك، والتدرج يتنامى في تطور الفكرة داخل نسيج الخطاب لينتج من جرائها حركة ديناميكية، فقولها: ((أدلكم – يكفلونه- ناصحون)) ، هذه الأفعال لا تعمل منفصلة عن بعضها، بل يكون عملها على نحو تكافلي تكاملي، ويأتي الربط بالفاء ((فقالت)) لتؤكد هذه التكاملية، وكفالتهم لموسى ﷺ، والربط بالواو الحالية ((وهم له ناصحون)) لتؤكد

القيمة الترابطية للوصول إلى القمة الجدلية للحدث. كما بين الخطاب القرآني صورة آل فرعون بأنهم لا يشعرون مرة وأنهم لا يعلمون مرة أخرى، إذ نفى عنهم العلم والشعور ، وهم ينتظرون مصيرهم وهلاكهم.

نتائج البحث الموجزة

١- يظهر الخطاب القرآني حكمة بلقيس ملكة سبأ ورجاحة عقلها في تدبّر أمورها واحوال قومها في مصالحتها لسليمان ﷺ لعلمها المسبق بأنَّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا اعزة أهلها أذلة، وكان من بعد نظرها أن سارت إليه، وادركت بالعلم اليقين قدرة الله تعالى وصحة نبوة سليمان ﷺ، وقد رأت ما رأت فاسلمت لرب العزة وانقادت لله تعالى.

٢- وعبَّر الخطاب القرآني في قصة مريم بأن الله خلق عيسى ﷺ بكلمة منه سبحانه على أتمّ إنشاء وإبداع، وعبّر في قصة زكريا بأنَّ الله سبحانه سيرزقه الولد الصالح ((يحيى)) وقد بلغ زكريا من الكبر وامرأته عاقر، والله يخلق ما يشاء، إذ عبر الخطاب بـ ((يفعل)) وفي ذلك تجري آية زكريا بأنّ تينك الزوجين لا يولد لمثلها في العادة، وإيجاد عيسى ﷺ على غير المعهود في التوالد، فهو بقدرة الله وأمره، والله يخلق ما يشاء.

٣- خص الله سبحانه سارة زوجة إبراهيم ﷺ بالبشارة في أن يرزقها بالولد وهما زوجان كبيران في السن، وقد عجبت من أنها تلد، وهي ما هي عليه إذ إن تلك الولادة خروج عن العادة ومثلها لا يلد، وجاء رد الملائكة: أتعجبين من أمر الله الذي لا يعجزه شيء، وكان لهذا الخطاب رد فعل لحدث حاسم، (ولادة امرأة عجوز)، وكان سبحانه وتعالى قد نجى ابراهيم ﷺ من نار قومه الظالمين من قبل.

٤- يقدم الخطاب القرآني الدقة التعبيرية في دلالة ((الجزاء والأجر)) في قصة موسى والمرأتين اللتين سقى لهما موسى ﷺ فأغاثهما وكفاهما امر السقي رغبة في الخير والصلاح، وقد صور الأسلوب القرآني الشعور النفسي لشخصية المرأة التي استجاب لها موسى ﷺ وجعل من الحدث بمشاهده المتعاقبة نسقاً مثالياً موحياً بفخامة القصد وسمو المعاني.

٥- بين الخطاب القرآني عصمة انبياء الله سبحانه، فهذا يوسف ﷺ تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويمتنع من مطاوعتها بارتكاب الفاحشة، وقد سمى سبحانه صنيع تلك المرأة وفعلها السوء وكيدها ليوسف ﷺ بالعظمة، وكيد الشيطان بالضعف؛ وذلك من بلاغة الاعجاز القرآني لأنَّ كيد الشيطان يأتي بالوسوسة والخيال، وكيد المرأة بالعيان والمواجهة، وكان

لتلك العصمة أثرها في تشكيل الحدث وردة الفعل المتولدة في خلق الشعور بالخيبة، والانكسار الذي صاحب امرأة العزيز في البعد عن نيل مرغوبها.

٦- ضرب الخطاب القرآني المثل في حث المؤمنين على الاحتساب والصبر في الشدة بآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران رغبة في التمسك بالطاعة والثبات على الإيمان حين صبرت آسية بنت مزاحم امراة فرعون على أذاه، إذ كانت قد آمنت بموسى ﷺ ودينه السماوي القويم، ورغبت عن فرعون ودينه الوثني وكفره، فطلبت النجاة من رب العزة بالقرب من رحمة الله سبحانه، وكان خطابها بالدعاء والتوجه إلى الله سبحانه عند المحن والنوازل ، فاستجاب الله تعالى لدعائها .

٧- تعامل الخطاب القرآني مع الزمن النفسي للشخصية القائم على اختزال الزمن الابلاغي وذلك في أمنية مريم وتصريحها بالمعاناة والجزع عند الولادة، ((ويا ليتني مت قبل هذا))، إذ تشكل تمهيداً للاحداث القادمة التي تتصل بوعي الشخصية المتمنية والكشف عما في النفس من شعور عند مواجهة مجتمعها والتزامها بالموقف الأخلاقي والديني تجاه واقعها وملامة الناس، وتنامي احداث الخطاب عَبْرَ ربط الأسباب بالنتائج وامتلاكها عناصر القوة الدالة على سلامة الموقف الاعجازي والإبداع الإلهي القائم على التوازن في نمو الأحداث وتجسيدها.

٨- يقرر الخطاب القرآني مبدأ إن الله سبحانه يصطفى من عباده من يشاء، فدحض شبهة أحبار اليهود باحتكارهم فضل الله في قبوله ((مريم)) وخلاصها لرب العزة منذورة، مقبولة في طاعة الله وعبادته، وردّ الخطاب شبهه المشركين من العرب باصطفاء ((محمد)) (صلوات الله عليه وآله)، بالنبوة وهداية الناس للإسلام، كما أصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران من قبل على العالمين.

٩- رسمت صورة الخطاب القرآني صدق وعد الله سبحانه في رد الطفل الرضيع ((موسى)) إلى أمه وجعله نبيا مرسلاً إلى نبي إسرائيل، والأحداث التي رافقت تلك الصورة من إلهام أم موسى وخطاب امرأة فرعون لزوجها بالنفع والاتخاذ، وتنامي الأحداث المتوالية وتدرجها في تفاصيل البناء الدرامي داخل نسيج الخطاب ليتحول هذا الخطاب من التلميح والإيحاء إلى التصريح والإبانة والتعبير المباشر في مشاهد الصورة القرآنية وأسلوب نظمها وعرضها المعجزِ.

الهوامش :

[(١)] ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٨٧٦/٩، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢٥٨/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٠٦/٢، والجواهر الحسان للثعالبي ٢٤٩/٤ .

[(٢)] ينظر: معاني القرآن واعرابه للزجاج ١١٩/٤، وتفسير القرآن للسمعاني ٩٥/٤، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ١٩٤/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٧١/٦.

[(٣)] ينظر: الكشاف للزمخشري ٣٦٨/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٥٧/٤، والمجتبى من مشكل إعراب القرآن لأحمد محمد الخراط ٨٦٨/٣.

[(٤)] ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزّي: ١٠١/٢.

[(٥)] ينظر: معاني القرآن واعرابه للزجاج ١٢١/٤، وانوار التنزيل للبيضاوي ١٥٩/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٠٦/٢.

[(٦)] ينظر: الكشف والبيان ٥٧/٣، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٩٢/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٥٤/١.

[(٧)] ينظر: الهداية لمكي القيسي ١٠١٣/٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٣١٣/١، ومعالم التنزيل للبغوي ٤٤١/١، زاد المسير لابن الجوزي ٢٨٣/١.

[(٨)] ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٦٥٣/٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٢٠/٨، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٥٦/١.

[(٩)] المحرر الوجيز لابن عطية ٤٢٦/١.

[(١٠)] ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي ١٧/٢.

[(١١)] ياويلتي: (يا ويلتا) أصلها يا ويلتي، فابدل من الياء – ياء الإضافة– ألفاً؛ لأنها أخف من الياء والكسرة أو إنها ألف الندبة، ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل؛ ولكنها كلمة تخف على افواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وعجبت من ولادتها ومن كون بعلها شيخاً لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب.

[(١٢)] ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ١٩١/٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٤٤/٥، والجواهر الحسان للثعالبي ٢٩٢/٣.

[(١٣)] ينظر: مدارك التنزيل للنسفي ٧٣/٢، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣٧٥/١ .

[(١٤)] ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٨/ ٢٧٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٤١/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٨٧/٤ .

[(١٥)] ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٤٤٣/٢، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٩٠/٢، والجامع لأحكام القرآن القرطبي ٦٩/٩.

[(١٦)] ينظر: جامع البيان للطبري ٥٥٩/١٩، والكشف والبيان للثعلبي ٢٤٥/٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢٨٤/٤ .

[(١٧)] ينظر: معالم التنزيل للبغوي ٥٣٠/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١١٢/٢، والبحر المحيط لابي حيان ١٠٩/٧.

[(١٨)] المفردات في غريب القرآن للراغب مادة ((هي)) .

(١٩) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٠/١٠٣.

(٢٠) مغنى اللبيب لابن هشام: ٦٧٥.

(٢١) من أسرار التعبير القرآني لابن موسى: ٤٢.

(٢٢) العين للخليل بن احمد مادة: اجر، ومعجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم. د. محمد محمد داود: ٤٦-٤٧- ٩٠.

(٢٣) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري ٣/٦٣، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/١٣٢، ومدارك التنزيل للنسفي ٢/٦٣٨.

(٢٤) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦/ ٥٠، والكشف والبيان للثعلبي ٥/٣٠٨، ولطائف الإشارات للقشيري ٢/١٨٠، ومدارك التنزيل للنسفي ٢/١٠٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٢٨.

(٢٥) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٣/٢٤، والكشاف للزمخشري ٣/٤٥٨، ومفاتيح الغيب للرازي ١٨/٤٤٤، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٩/١٧٠، وأنواز التنزيل للبيضاوي ٣/١٦٠.

(٢٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن حاتم ٧/٢١٢٧، ومعالم التنزيل للبغوي ٢/٤٨٧، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١/٣٨٥، والجواهر الحسان للثعالبي ٣/٣٢١.

(٢٧) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٩/١١٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/٢٨٥، والكشاف، للزمخشري ٤/٤٠٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٨/١٧٧، وتنوير المقياس للفيروز آبادي : ٥٢٢.

(٢٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٤٦، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٥/١٤٩، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/١٣٨، والجواهر الحسان للثعالبي ٣/٧٢.

(٢٩) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/٤٧٩، والكشاف ٤/٥٧٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣١٢، وانوار التنزيل للبيضاوي ٥/٢٢٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/١٩٣ .

(٣٠) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٩/٣٤٣، ولطائف الإشارات للقشيري ٣/٦٠٩، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٠/٥٧٤، والتسهيل لمعالم التنزيل لابن جزي ٢/٣٩٣.

(٣١) ينظر: معالم تنزيل للبغوي ٥/١٣٢، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ١٨/٣٠٢، ومدارك التنزيل للنسفي ٣/٥٠٨.

(٣٢) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري ٢/٤٢٣، والتسهيل لمعالم التنزيل لابن جزي ١/٤٧٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٦/١٧٢، وتنوير المقياس للفيرز آبادي ٣٠٦.

(٣٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٦/٢٠٧، وتفسير القرآن للسمعاني ٣/٢٨٥، ومدارك التنزيل للنسفي ٢/٣٣٠.

(٣٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢١/٢٠٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/١٩٦، والجواهر الحسان للثعالبي ٤/١١.

(٣٥) جامع البيان للطبري ٥/٥١١.

(٣٦) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري ٢/٤٢٤، والكشاف للزمخشري ٣/١٣، ومفاتيح الغيب للرازي ٢١/٥٣٤، والتبيان للعكبري ٢/٨٧٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٤/٨.

(٣٧) فتح البيان لأبي الطيب صديق البخاري ١٥٢/٨ .

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٣٤/١٣.

(٣٩) ينظر: الهداية لمكي القيسي ٣٥٥٢/٥، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي النيسابوري ٥٤٥/١، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢٤١/٣، وانوار التنزيل للبيضاوي ١٥٩/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣٨٦/١، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٩٦/٥.

(٤٠) ينظر: جامع البيان، للطبري ٨٥/١٦، ولطائف الشارات للقشيري ١٨٣/٢، والجواهر الحسان للثعالبي ٣٢٢/٣.

(٤١) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري ١٨٣/٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٤٨٧/٢، وتفسير روائج البيان لايمن عزيز جبر ٢٣٩ .

(٤٢) ينظر: مدارك التنزيل للنسفي ١٠٧/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٠٥/٥.

(٤٣) ينظر: الهداية لمكي القيسي ٣٥٥٠/٥.

(٤٤) ينظر: جامع البيان للطبري ٣٢٨/٦، والكشف والبيان للثعلبي ٥١/٣، والهداية لمكي القيسي ٨/ ٥٥١٨، ولطائف الاشارات للقشيري ٢٤٢/١، ومعالم التنزيل للبغوي ٤٣٣/١.

(٤٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٢٤/١، ومفاتيح الغيب للرازي ١٩٩/٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٥٥/٢.

(٤٦) ينظر: تفسير القرآن لابن أبي حاتم ٦٣٦/٢، والكشاف للزمخشري ٤٠٢/٣، وانوار التنزيل للبيضاوي ١٤/٢، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١٨٨/١.

(٤٧) ينظر: الهداية لمكي القيسي ٩٩٣/٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٣١٢/١، والكشاف للزمخشري ٣٥٤/١.

(٤٨) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٢٧٧/٤، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٧٢/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٣٦٠/٢، والبحر المحيط لابي حيان ١٠٣/٧.

(٤٩) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢٣٣/٧، ولطائف الاشارات للقشيري ٥٥/٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٥٢٤/٣، وتفسير روائع البيان أيمن عبد العزيز جبر: ٣٨٦.

(٥٠) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ١٠٩/٧.

(٥١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٣٥/١، ومعالم التنزيل للبغوي ٥٢٥/٣، ومفاتيح الغيب للرازي ٥٧٩/٢٤.

The effectiveness of feminist discourse in the Quranic method

Usra K. Housein
College of Education/ Ibn Rushd
University of Baghdad

Quran through his speech and presentation - Btnoath different - establishes a means of expression achieved by the consistency between units of construction and style , To brighten the windows of a variety of indications exceeding the standard to multiple readings, Broadened significance depending on the shifts in style and diversity of the components of the structure, To give context to the first reference to extrapolate the role of discourse and knowledge Madaha functionally through diversity in the structure of the image , Because of this diversity leaves the images ready and significance of conventional spin that remain in the lexicon millstone, Or remain hostage vision interpreted to conform with the taste and spirit without flying in space image, And beyond the perceived limits of the world; Tstafa image to read the exuberant visions and perceptions, Read involving the character and the word and the context and the receiver together, What makes the Quranic discourse Taatsahir where relationships and compositional formats prepared in advance, Or stomach to unpack specific cognitive or semantic, which cancels thinking and meditation disclosed for the new attitudes that would regulate relations communicative; they approach more than the soul and emotions.

Valoslob manner and dimensions that would awaken the self-contained self embodies the aspirations abroad , Which in turn is almost a sense of meaning, including the effectiveness of owned channels raise awareness of the recipient when it turns to the Quranic discourse is aware of significant or audible or imagined or connoisseur depending on the openness of the fields of the senses and its repercussions in the mailing and receiving while Nt oblique images in front of him, Became an impact to make the recipient opens the fields of meditation and interpretation, The Taataalq expressive compositions and overlap, Do not let the viewer determine Alaúgaha restrictions and ties.